المحاضرة السادسة

السرد في كتب الأخبار

قال الوشاء: "اعلم أن أول ما يجب على العاقل...

النظر في أفانين الآداب وقراءة الكتب والآثار ورو اية الأخبار والأشعار

الموشي، ص14

جاء في مقدمة ابن خلدون وهو يتحدث عن طبيعة الأدب، قوله: الأدب "هو حفظ أشعار العرب وأخبارها"[1]. ومعنى هذا أن الأدب يستند إلى مقومين أساسيين هما؛ الأشعار والأخبار، والمشترك بينهما هو التعدد والانتشار، فكما توجد للأشعار والأخبار مدونات مستقلة، تنتشر –كذلك– الأشعار والأخبار في كتب الأدب والتاريخ والرحلات والتفاسير والفقه والسير والتراجم... وهذا ما أكده محمد القاضي في حديثه عن الأخبار بقوله: "تتوزع الأخبار في أثار كثيرة متنوعة الأغراض متشعبة المواضيع، منها ما يمت بصلة إلى الأدب أو اللّغة ومنها ما هو أدخل في التاريخ، ومنها ما له بالدين –حديثا وسيرة وفقها– نسب صريح"[2].

كما وصلتنا مصنفات إخبارية نذكر منها كتاب "الموشي" أو "الظرف والظرفاء" للوشاء (ت325ه) جاء في مقدمة الكتاب قوله: "اعلم أن أول ما يجب على العاقل المنفصل بصفته عن الجاهل أو يتبعه ويميل إليه... مجالسة الرجال ذوي الألباب والنظر في أفانين الآداب وقراءة الكتب والآثار ورواية الأخبار والأشعار"[3]. فرواية الأخبار والأشعار من أفانين الآداب التي يجب على العاقل معرفتها، وكتب أخرى مثل "الفرج بعد الشدة" و"نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" وهما للحسن التنوخي (ت314ه)، وكتاب "الديارات" للشابشتي (ت388ه)، وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي وأخبار النساء لابن القيم الجوزية (ت751ه) ويأتي على رأس

---

[1] انب خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، 1989، ج2، ص721.

[2] محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي (دراسة في السردية العربية)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص09.

[3] الوشاء (أبو الطيب محمد بن إسحاق)، الموشي أو الظرف والظرفاء، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص14.

المدونات الإخبارية كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني (ت356ه) "وهو أكبر مدونة للأخبار في الأدب العربي"[1].

كما تنفتح أنواع سردية قديمة على الأخبار وخاصة المقامات العربية والسير الشعبية وأدب الرحلات، شأن المقامة الغيلانية للهمذاني، والمقامة الفارقية للحريري.

أولا. دلالة المصطلح (الأخبار):

مادة خبر كما جاء في اللسان[2]"تحمل جملة من الدلالات، منها العلم بالشيء "خبرت الأمر" علمته، وفي قوله تعالى: (**فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً**)[3] أي اسأل عنه خبيرًا بخبر، والخبر ما أتاك من نبأ عمن تستخبر، والخبير العالم بالأمر، وخبار الأرض ما استرخى منها، والخبر منقع الماء من الجبل، والخبر شجر السدر. والملاحظ هو أن المعنى الأول هو الأقوى إلى مجال بحثنا، أي الإخبار والإعلام لقوله تعالى: (**سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ**)[4] أي بعلم، ويقال: أخبره خبوره: أنبأه ما عنده.

واليوم نستعمل ملفوظ الأخبار بمعنى "الإنباء والإعلام؛ أي إخراج المادة الأصلية من مجال الأحداث والأحوال إلى مجال القول أو الكتابة، وهو أقرب ما يكون إلى ما أطلق عليه الإنشائيون اسم الخطاب "Discours" وهو الكلام المستعمل لنقل الأحداث والأقوال إلى سامع أو قارئ، وهذا الكلام يقوم به راوٍ"[5] أي إخراج المادة الحكائية من الأفعال إلى الأقوال.

وقد تحدث التهناوي (ت1158ه) في كتابه عن الحقول المعرفية التي شاع فيها استعمال الخبر، وهي: علوم الحديث النبوي، وعلوم اللغة (النحو والبلاغة العربية)، وبعد تحليل مستفيض خلص إلى القول "إن العلماء اختلفوا في تحديد الخبر، فقيل لا يحد لعسره، وقيل لأنه ضروري، وقيل يحدّ واختلفوا في تحديده"[6].

---

[1] محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص08.

[2] ابن منظور، لسان العرب، ج5، مادة (خ ب ر).

[3] سورة الفرقان، الآية 59.

[4] سورة النمل، الآية 07.

[5] محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص49.

[6] التهناوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، منشورات خياط للكتب والنشر، بيروت، (دت)، ج2، ص410.

ويخلص محمد القاضي بعد استقراء[1] وتتبع ما جاء في مصادر الأدب خاصة عند الجاحظ في (الحيوان) وابن النديم في (الفهرست)، وعبيد بن شرية في (أخبار اليمن)، وياقوت الحموي في (معجم الأدباء) والسمعاني في (كتاب الأنساب) إلى هذا التوصيف: "الخبر هو كل ما يقال سواء أكان من جنس المقدس قرآنا وحديثا، أو من جنس الدنيوي كالقول المأثور وذكر الوقائع ووصف البلدان"[2] إلا أنه ركّز في هذا القول على الإشارة إلى مصادر الخبر دون الإتيان بتعريف جامع مانع وهو الأمر المستعصى على الأولين والآخرين.

ثانيا. مرتكزات الخبر الأدبي:

إن دراسة الأخبار الأدبية بالتركيز على متونها فحسب هي دراسة قاصرة ومخلة لأنها تهمل "مدخلاً مهما من المداخل التي تؤدي إلى فهم هذا الضرب من الإبداع"[3] والمقصود بهذا المدخل هو الإسناد الذي يعد ركيزة سردية في الأخبار الأدبية. فالخبر الأدبي بنية سردية ترتكز على مقومين متلاحمين هما: السند والمتن. وسوف نفصل في هذين المقومين قليلا، ونبدأ بـ:

1- سند الخبر الأدبي (الإسناد):

مادة (س ن د) في المعاجم العربية تحمل جملة من المعاني أعمها الاعتماد والاتكاء والرفع، جاء في المعجم الوسيط[4] سند إليه، سنودًا: ركن إليه وأعتمد عليه واتكأ، وأسند الحديث إلى قائله: رفعه إليه ونسبه، وأسند إليه أمره وكلّه... وفي مصطلح الحديث: رجاله الرّاوون له (ج أسانيد) والسند من الحديث ما اتصل إسناده إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فالسند فيه معنى الاعتماد والاستعانة، وفيه معنى الرفع والاتصال، فإسناد الحديث معناه رفعه إلى قائله الأول.

والإسناد خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية، فلا نعلم أمما أخرى أولت الإسناد أهمية كما أولته الأمة الإسلامية، خاصة وأن هذا المرتكز يرتبط بأصل من أصول التشريع

---

[1] ينظر محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي،من ص58 إلى ص90.

[2] المرجع نفسه، ص82.

[3] المرجع نفسه، ص225.

[4] المعجم الوسيط، ص479.

الإسلامي وهو الحديث النبوي الشريف، فهو خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، يقول عبد اله بن المبارك: "الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"[1]. ويكاد يجمع المحققون على أن الإسناد "نشأ أولاً في أحضان الدين وفي بيئة المحدثين والفقهاء، ولما تعاظم أمره فاض على الأدب، فأخذ الرواة يستخدمونه كما يستخدمه المحدثون"[2]. لكن ناصر الدين الأسد شد على هذا الإجماع، يقول: "فنحن نرى، فيما يبدو لنا، أن الرواية الأدبية أصل قائم بذاته، وقد وجدت عند العرب منذ الجاهلية، فكان علماء النسب الجاهليون ومن أدرك منهم الإسلام يأخذون علمهم بالنسب من شيوخ هذا العلم ممن تقدمهم أو عاصرهم، وكذلك كان رواة الشعر والأخبار الجاهلية"[3].

ونعتقد أن مسألة البدايات مسألة عويصة على الفصل (فهل الإسناد وجد في الأدب أولاً أم في الحديث النبوي)، لهذا نقول: إن ثمة فروق جوهرية بين الإسناد في الحديث النبوي والإسناد في الخبر الأدبي، فهو في الأول قيمة وفي الثاني زينة، أي في الأحاديث النبوية هو ضرورة شرعية لاتصال الكلام بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولهذا أولاد علماء الحديث مصنفات وأبواب متعددة، أما في الأخبار الأدبية فهو زينة، غايته الإمتاع لا الإقناع بصحة القول أو نسبته إلى صاحبه، وهو الموقف ذاته الذي انتهى إليه ناصر الدين الأسد بعد بحث مستفيض في الإسناد الأدبي، يقول: "ولو كان الإسناد أصلاً من أصول الرواية الأدبية –كما هو في رواية الحديث– إذن لوجدنا بين يدي كل خبر وكل بيت من الشعر أو مجموعة من الأبيات إسنادًا ملتزما كالإسناد الذي يلتزم بين يدي كل حديث نبوي، ولكان كل سند من هذه الأسانيد الأدبية متصلاً مرفوعا في الشعر إلى الشاعر الجاهلي أو إلى روايته، وفي الخبر إلى من شهده في الجاهلية"[4]. ولهذا وجد علم الجرح والتعديل في الحديث النبوي، ولم يوجد في الخبر الأدبي، وإذا وجدنا الإسناد في الخبر الأدبي فهو لتأكيد الرواية الشفوية "السند في الأدب

[1] الحاكم النيسابوري، معرفة علوم الحديث، ص06.

[2] محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص229.

[3] ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1982، ص255.

[4] المرجع السابق ، ص281.

–حين يوجد– أن يكون دليلاً على أن الراوي قد لقى العلماء وأخذ علمه من أفواههم في مجالس العلم ولم ينقله من صحيفة"[1].

فعلم الجرح والتعديل هو من أجل علوم الحديث النبوي، فهو ميزان العلماء في دراسة أحوال الرواة قصد تمييز الصحيح من الشنيع، والجرح معناه "ظهور وصف في الراوي يُثلم عدالته أو ينحل بحفظه وضبطه، مما يترتب عليه سقوط روايته أو ضعفها وردها، والتجريح وصف الراوي بصفات تقتضي تضعيف روايته أو عدم قبولها"[2]. وأما التعديل فهو عكس التجريح: "فهو وصف الراوي بصفات تزكيه فتظهر عدالته ويقبل خبره"[3] ومما ركّز عليه العلماء في أحوال الرواة: البحث في ثقة الراوي ومدى حفظه وضبطه، ومن أشهر ما صنف في الجرح والتعديل منذ القرن الثاني للهجرة: كتاب (معرفة الرجال) ليحي بن معين (ت233ه)، وكتاب (الضعفاء) للبخاري (ت256ه) وكتاب (الضعفاء والمتروكين) للنسائي (ت303ه)، وكتاب (الجرح والتعديل) لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت327ه)، وكتاب (ميزان الاعتدال) للذهبي (ت748ه) و(لسان الميزان) لابن حجر العسقلاني (ت852ه)، وهي مصنفات تؤكد أهمية هذا العلم وضرورته الشرعية.

ورغم غياب علم الجرح والتعديل في الأخبار الأدبية، يبقى الإسناد مكون سردي من مكونات الخبر الأدبي فهو "آلية سردية، يحرص المؤلف على توافرها في النص استجابة لنزوع ثقافي عربي يؤثر الصدق والواقعية"[4]. تتأكد هذه الأهمية في الخطاب الاستهلالي لكثير من السرود العربية التي تبدأ عادة بفعل: حدثنا، سمعنا، أخبرنا...

ولعل هذا ما دفع ثلة من العلماء إلى الاشتغال في مدوناتهم السردية على مكون الإسناد، نذكر من هذه المؤلفات: كتاب (الأوراق) للصولي (ت335ه) و(الأغاني) للأصبهاني (ت356ه)، و(الفرج بعد الشدة) و(تشوار المحاضرة) للمحسن التنوخي (ت384ه).

---

[1] المرجع نفسه ، ص282.

[2] محمد عجاج الخطيب، الوجيز في علوم الحديث ونصوصه، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989، ص230.

[3] المرجع نفسه، ص231.

[4] عبد الرحمن شعلان، السرد العربي القديم (البنية السوسيوثقافية والخصوصيات الجمالية)، نقلا عن جمال حسين عماد، من أشكال السرد العربي القديم، الخبر الأدبي، مجلة المسيرة الثقافية، العدد الثالث والرابع والعشرون، ماي 2014.

لكن لا نجد –هؤلاء– يولون للصدق أهمية في أسانيدهم، فالأصبهاني في كتابه (الأغاني)[1] "لا يتردد في إيراد الأخبار الموضوعة، والأكاذيب وهو عارف بكونها كذلك، كما أنه ينقل أخبارًا كثيرة عن رواة غير عدول... ولعل هذا ما جعل الخطيب البغدادي يصف أبا الفرج الأصبهاني بأنه أكذب الناس"، "والإسناد في الحديث وسيلة لتحقيق الحديث أي البرهنة على أنه حقيقي قد صدر عن الرسول فعلاً. أما في الخبر الأدبي فالإسناد وسيلة للمشاكلة أي إيهام القارئ أو السامع بأن الخبر ممكن الوقوع إن كان مداره على الأحداث، وممكن القول إن كان مداره على الأحاديث"[2].

وللإسناد وظائف[3] متعددة يمكن حصرها على مستوى:

– **المؤلف:** الإسناد يقوم بدور الشاهد على أن الخبر مروي غير مخترع، وإلقاء المؤلف عهدة الحديث على غيره.

– **المتلقي:** فهي أداة لا غنى عنها لتوضيح الحركة التي انتظمت أدب الأخبار في مساره الطويل، وعن طريقها يمكننا أن نقف على التيارات المؤثرة في هذا الأدب والموجهة له.

2– متن الخبر الأدبي (المتن):

المتن في المعاجم باللّغوية له مجموعة من الدلالات، يمكن حصرها في هذه النقاط: مَتَنَ[4] بالمكان مَتْنا: أقام... ومَتُنَ الشيء مكانه صلب واشتد وقوي، فهو مَتْن ومتين، والمتين في أسماء الله عز وجل: ذو القوة والاقتدار والشدة، والمَتْن: الظهر (يذكر ويؤنث)، ومتن الأرض: ما ارتفع وصلب منها، ومتُنُ الكتاب، الأصل الذي يشرح وتضاف إليه الحواشي.

المعاني المشتركة لهذه المادة اللغوية يمكن جمعها في الشدة والقوة والارتفاع والأصل، وهي معاني تتجمع في متن الخبر الأدبي.

---

[1] ينظر محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، من ص305 إلى 307.

[2] المرجع نفسه، ص308.

[3] للتوسع العودة إلى كتاب الخبر في الأدب العربي لمحمد القاضي، من ص326 إلى ص348.

[4] المعجم الوسيط، الجزء الثاني، ص890.

وبعيدًا عن الدلالات النحوية نحاول أن نركب للمتن الإخباري هذا الحد، فنقول: "الخبر فضاء سردي مخصوص يتضمن وقائع وشخصيات"، فالأخبار والبيان والتبيين والفرج عن الشدة...الخ، هي أخبار تتميز بجملة من الخصائص، أسهب محمد القاضي –في أطروحته[1] المائزة– في استنباطها والنمذجة لها، يمكن حصرها في:

1– ثنائية الاستخبار والإخبار[2]: أو ثنائية الطلب والحصول على الطلب وعادة ما ينقطع الفعل السردي بتحقق الطلب... وقد اصطلح التنوخي على تسمية هذه الثنائية، الشدة والفرج في كتابه "الفرج بعد الشدة"، وعلى نهجه سار "الحريري" (ت516ه) في مقاماته، ففي المقامة الرقطاء تتجلى الأخبار وفق هذه الثنائية (الشدة/ الفرج) في صورة واضحة، كما يمكن قلب هذه الثنائية؛ أي (اليسر ثم العسر) كما في أخبار المقامة الفارقية.

2– بساطة البنية السردية: والبساطة لا علاقة لها بالطول أو القصر و"إنما تلتمس البساطة في الحركة السردية والتي تختزل –غالبا– في ثنائية الطلب والاستجابة أو الطلب وعدم الاستجابة"[3] الطلب والاستجابة كما في (الفرج بعد الشدة) للتنوخي والطلب وعدم تحقق الاستجابة كما في البخلاء للجاحظ، ومما جاء فيه هذا الخبر:

لكن يمكن أن نواجه ببنى سردية مركبة في سرودنا العربية القديمة خاصة في ألف ليلة وليلة أو مائة ليلة وليلة، حيث تحتوي القصة الإطار قصصا أخرى: تقصه شهرزاد مع شهريار هي القصة الإطار وهي تحتوي –مثلا–، قصة حمال بغداد والبنات الثلاث، ويسمي تودوروف هذه الخاصية بالتضمين.

3– الوظائف والشخصيات:

بنية الخبر الأدبي تولي أهمية للوظائف وتقدمها على الشخصيات "ونطلق اسم الوظيفة على الأعمال الرئيسية التي تمثل مفاصل البنية الحديثة وأركانها"[4] فالأخبار الأدبية تركز على

---

[1] ينظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، من ص351 إلى 531.

[2] المرجع نفسه، ص355.

[3] المرجع نفسه، ص358.

[4] المرجع السابق، ص368.

عمل الشخصيات ونادرًا أن تشتغل على توصيف الشخصيات. فالوظائف "تعد عنصر الثبات في الخبر، والشخصيات عنصر التحول فيها"[1]

4- أسلوب التمثيل:

ترتبط هذه الخاصية بأسلوب الخطاب الإخباري، فالأخبار "تقوم على استعادة قول الراوي، فأسلوب التمثيل هو المدخل الرئيس للخبر ذلك أن الراوي الأخير ينقل لنا ما حدثه به الراوي السابق، وهذا بدوره ينقل لنا ما سمعه من الراوي الأسبق حتى نصل إلى أصل الخبر"[2]. لكن هذا الملفوظ (النص) يتعرض لا محالة للتحوير والتبديل وهو يمر عبر هذه السلسلة من الرواة.

كما أن للخطاب السردي للأخبار الأدبية له ما يميزه، سواء على مستوى الزمن أو مستوى الرؤية السردية أو حتى الصيغة "فزمن الخطاب في الخبر يختزل زمن الأحداث"[3].

أما على مستوى التبئير، فالرؤية من الخلف هي الغالبة لا على المتن الإخباري فحسب بل على السرود العربية القديمة كلها، فالراوي يعرف أكثر مما يعرف الشخصيات، مع وجود بعض الأخبار الأدبية يكون فيها الراوي هو البطل، أو ما يعرف بالرؤية مع.

أما أنماط الرؤية في الأخبار الأدبية فهي محكومة بظاهرتين: "أولاها تعدد أنماط الرؤية في الخبر الواحد والثانية تعدد صيغ الخبر الواحد بحسب أنماط الرؤية"[4]، وهذه الأخيرة تكون عادة في الأخبار التي تروى بصيغة الغائب أو بضمير المتكلم وهذه الظاهرة كثيرة الورود في (الأغاني) كما يقول محمد القاضي.

هذه هي أهم الخصائص التي تميزت بها الأخبار الأدبية في ركنيها الإسناد والمتن، ونريد أن نؤكد في ختام هذه المحاضرة على أن الأخبار الأدبية التي توزع في آثار أدبية ودينية

---

[1] المرجع نفسه، ص370.

[2] المرجع نفسه، ص388.

[3] المرجع نفسه، ص397.

[4] محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص402.

وتاريخية هي بحاجة إلى جهود الباحثين قصد جمعها في مدونات مستقلة ثم دراستها وفق نتائج البحوث السردية المعاصرة.

ثالثا. للتطبيق:

المطلوب: استنباط السمات السردية لهذا الخبر الأدبي

"... روي عن ابن سهل بن سعد الساعدي قال: دخلت على جَميل بن مَعْمَر العُذري، وهو عليل، وإني لأرى آثارَ الموت على وجهه، فقال: يا ابن سهل! أتقولُ إن رجلاً يلقى اللهَ لم يسفك دمًا حَراما، ولم يشرب خمرًا، ولم يأت بفاحشة، أترجو له الجَنة؟ قلت: إي والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل. قلتُ: بعدَ زيارتك بُثينة وما تُحُدِّثَ به عنكما؟ فقال والله إني لفي آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، ولا نالتني شفاعة محمدٍ، صلى الله عليه وسلم، إن كنتُ حدّثتُ نفسي فيها بريبة قط، قال: فما انقضى يومُه حتى مات"[1].

الموشي أو الظرف والظرفاء للوشاء، ص71.

[1] الوشاء (أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحي)، الموشي أو (الظرف والظرفاء)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص71.